الفصل الأول

عصر حسن العطار

١ ــ الحياة السياسية

ولد الشيخ حسن العطار فى أول الثلث الأخير من القرن الثامن عشر سنة ١٧٦٦ م ، أى قبل الحملة الفرنسية على مصر باثنين وثلاثين عاماً . فهو يعطينا بمولده هذا صورة لمصر السياسية فى القرن الذى كان نهاية لحكم الولاة العثمانيين فى مصر .

والحق أن مصر فى القرن الثامن عشر كانت تختم القرون الثلاثة من الحكم العثمانى الذى ساقه القدر إليها على يد السلطان سليم العثمانى الذى فتح مصر سنة ٩٢٢ هـ ــ سنة ١٥١٧ م . وهى قرون شهدت البلاد فيها من الظلام والجهل والضعف والتأخر فى كل الميادين ما لا يمكن أن يصار إلى أسوأ منه . وكانت بداية القرون الثلاثة كنهايتها سوء حال ، وضعف مآل . وما ظنكم بفاتح تركى غاشم ، دهم البلاد بخيله ورجله ، ثم رأى ــ بعد أن خرج منها مخلفاً نائبه عليها ــ أن يسلبها خير ما فيها . فقد روى ابن إياس مؤرخ الحملة العثمانية على مصر أن ابن عثمان ــ يعنى السلطان سليما ــ خرج من مصر وصحبته ألف جمل محملة ما بين ذهب وفضة ، هذا عدا ما غنمه من التحف والسلاح والصينى والنحاس المكفت والخيول والبغال والجمال وغيرها . ولم يكتف بذلك بل نقل حتى الرخام الفاخر من مساجدها ودورها . وما أكثر تهكم مؤرخنا ابن إياس وهو يقول عن هذه المنهوبات إنها مما لا فرح به آباء السلطان سليم ولا أجداده من قبله أبدا ..! ولم تشبع هذه النفائس المصرية نهم الفاتح الناهب ، فنقل معه من مصر إلى إستنبول طوائف كثيرة من أرباب الصناعات وأهل الفنون من البنائين والنجارين والحدادين والمرخمين والمبلطين والخراطين والمهندسين والحجارين والفعلة . . .

وكاد مؤرخنا البحاثة المصرى وتلميذ المؤرخ السيوطى يذكر لنا فى حوادث سنة ٩٢٣ هـ من كتابه « بدائع الزهور ، فى وقائع الدهور » أسماء هؤلاء الذين اقتلعهم السلطان سليم من وطنهم ليحيي بهم الفن والصناعة فى وطنه . . .

وإذا كان الوالى العثمانى — الذى كان يعينه ساطان تركيا على مصر — هو أحد السلطات الثلاث التى كانت تشترك فى حكم البلاد وإدارتها ، وهى : الوالى نفسه ، ورؤساء الجند ، والأمراء المماليك الذين كانوا يحفظون التوازن بين الوالى ورؤساء الجند ؛ فإن هذا النظام الذى أدخله إلى مصر السلطان سليم أو السلطان سليمان القانونى قد تطور فى النصف الثانى من القرن السابع عشر بحكم طبيعة التنافس بين هذه السلطات الثلاث . وانتهى الأمر فى سنة ١٦٧٢ إلى أن استأثر المماليك البكوات وحدهم بحكم مصر ، ولم يكن للوالى التركى بجانبهم نفوذ ولا سلطان .

ويروى لنا الرحالة ڤانسليب Vansleb الذى زار مصر فى العقد الثامن من القرن السابع عشر أن عدد حكام مصر من البكوات المماليك فى عصره كان ستة عشر مملوكاً ، وإن كان هذا العدد قد نقص فى القرن الثامن عشر إلى بضعة من البكوات المماليك كما يذكر الرحالة سونينى .

وأيا ما كان عدد البكوات الذين استأثروا بحكم مصر وإدارة شئونها منذ القرن السابع عشر ؛ فإن تصحيحاً يجب أن يذكر هنا بصدد هؤلاء المماليك الذين شاركوا فى حكم مصر أو حكموها مستقلين فى العهد العثمانى . فليس كل هؤلاء البكوات المماليك أحفاداً لرجال دولتى المماليك البحرية والبرجية الذين انتهى إليهم حكم مصر بعد الدولة الأيوبية ؛ وليس هؤلاء البكوات المماليك امتداداً فى النسل والذرية لمماليك الدولتين البحرية والبرجية . نعم إن كثرة منهم كانت فى أول الحكم العثمانى امتداداً وأسلافاً لأولئك المماليك ، ولكنهم بعد ذلك وبمضى الزمن كانوا يجتلبون بوساطة البكوات الأمراء من بلاد الشركس والكرج والقوقاز عن طريق الشراء ، ليزداد البكوات عصبية بهم . وكان هؤلاء المجتلبون يصبحون مع الزمن أمراء ينقلبون على سادتهم الذين اشتروهم وينتزعون السلطان من أيديهم ويحلون محلهم . . .

وحين نتصفح تاريخ الجبرتى المسمى « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » نرى أخبارا كثيرة من هذه الانقلابات والوثبات التى كان يشنها هؤلاء الأمراء المماليك بعضهم على بعض حتى يستقيم لهم الحكم وحدهم بلا منازعين . . .

ومنذ انفرد البكوات المماليك بحكم مصر فى العصر التركى دون الوالى العثمانى ورؤساء الجند فإن نفوذ ذلك الوالى لم يعد له قيام . وكان هم الوالى وهو عديم السلطان فى القلعة أن يدس بين أمراء المماليك ويوقع الفتنة بينهم حتى يصفو له العيش ولو بعض حين . ومن يحضرنا فى هذا المقام الوالى العثمانى سليمان باشا الشامى الشهير بابن العظم الذى جاء لولاية مصر قبل مولد حسن العطار ببضعة وعشرين عاماً . ويذكر مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتى أنه لما استقر فى ولاية مصر أراد إيقاع فتنة بين الأمراء ، واستعان فى ذلك بالأمير المملوك عمر بن على بك قطامش ، واتفق معه على التخلص بالقتل من أربعة من البكوات المماليك ، وهم عثمان بك ذو الفقار ، وإبراهيم بك قطامش ، وعبد الله بك القازدغلى ، وعلى بك كتخذا الجلفى . وهم إذ ذاك أصحاب الرياسة والنفوذ بمصر ، وكان ثمن هذه الخيانة من المملوك عمر بك قطامش أن يعينه الوالى العثمانى أميراً للحج وأن (يعطيه من بلادهم فائظ عشرين كيساً) . . .

وبالطبع لم تطل ولاية هذا الوالى الدساس الذى قذف به السلطان العثمانى من الشام إلى مصر . فقد عرف البكوات فتنه ، واتقوا شره ، واضطروه إلى مغادرة البلاد . على أن خلفه المسمى على باشا حكيم أوغلى قد احتاط لنفسه من أن يتهم بالفتنة منذ اللحظة التى حط فيها رحاله بمصر ، فمنذ حضر أول ديوان بميدان قراميدان . وكان يشهده الجم الغفير من الناس ، وقرئ مرسوم الولاية بحضرة الجميع وقف الوالى الجديد يعلن فى صوت قوى مسموع : أنا لم آت إلى مصر لأجل إثارة فتن بين الأمراء ، وإغراء ناس على ناس ، وإنما أتيت لأعطى كل ذى حق حقه ، وحضرة السلطان أعطانى المقاطعات ، وأنا أنعمت بها عليكم ! فلا تتعبونى فى خلاص المال والغلال ! !

والحق أن الدولة العثمانية فى ذلك الحين كانت مشغولة بضعفها وتقهقر

الأمور فيها عن أن توجه عنايتها إلى مصر أو إلى أى بلد آخر من البلدان التابعة لها . فقد كان عندها من المشاغل والمسائل ما يصرفها عن أن تتجه بإصلاح إلى هذه البلاد التى كانت بحاجة إلى إصلاح . وكانت الحروب والمنازعات التى قامت بينها وبين النمسا والروسيا فى ذلك العهد أكبر باعث للمماليك فى مصر على أن يحاولوا التخلص من سيادة تركيا ، والاستقلال بمصر . وقد ظهر ذلك جليًّا فى الدور الذى قام به المملوك على باك الكبير ، الذى كان كبيراً للبكوات المماليك فى مصر . والذى وصل بقوته ودهائه وقوة أشياعه إلى أن صار شيخاً للبلد سنة ١٧٦٣ م . فما كاد يرى الدولة العثمانية تدخل فى حرب مع الروسيا سنة ١٧٦٨ حتى جاهر بخلع يده من طاعة الدولة ، وامتنع عن دفع الخراج سنة ١٧٦٩ وأعلن استقلال مصر ، وعزل الوالى التركى المعين من قبل السلطان ، ومنع دخول أى واحد من الولاة العثمانيين إلى مصر ، وضرب النقود المصرية باسمه ، وبذلك تمت له كل مظاهر السيادة والاستقلال . ودانت له مصر كلها بوجهيها البحرى والقبلى. وقد كان هذا الحادث بعد ميلاد الشيخ حسن العطار بعامين اثنين.

ولا شك أن الشيخ حسن العطار قد بدأ فى مطلع شبابه يعى أمثال هذا الحادث . ولا شك أنه — وهو فى العشرين من عمره — قد شاهد الحملة العسكرية التركية التى جردتها الدولة العثمانية على مصر سنة ١٧٨٦ لكى تسترد سلطتها فيها بعد ما كان من استقلال على بك الكبير بأمر الحكم فى مصر . ولا شك أنه شهد فرار إبراهيم باك ومراد باك إلى الصعيد بعد أن نزلت الحملة التركية بقيادة حسن باشا الجزائرلى . ولا شك أنه شهد عودة إبراهيم ومراد إلى القاهرة واقتسام السلطة بينهما ، وتلاشى سلطة الوالى التركى ، إلى أن استقر إبراهيم بك شيخاً للبلد ، وما زال فى المشيخة حتى جاء نابليون بونابرت على رأس الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ م .

ومن سوء الحظ أن الشيخ حسن العطار لم يدرك فى طفولته قيمة فترة الاستقلال القصيرة التى تمتعت بها مصر فى عهد على باك الكبير . وأنه قد شاهد بعينيه قصة الصراع بين البكوات المماليك ، ولعله قد شاهد كذلك مبلغ ما وصل إليه

ضعف الوالي التركي وفناء شخصيته واستقلاله ، حتى لقد كان يعزله المماليك حين يشاءون بأن يرسلوا إليه رسولاً من عندهم يسمى الأودة باشي ، يلبس رداء أسود ، ويحمل قرار العزل . ولعله قد سمع تلك القصة التي رواها الرحالة سافاري ، ورواها كذلك الرحالة ڤولني في كتابه « ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام » حيث يذهب الأودة باشي إلى قاعة الاستقبال التي يجلس فيها الوالي ، فيدخل عليه ، وينحني احتراماً له ، ثم يلمس طرف السجادة ويطويها ، ويقول موجهاً الخطاب إلى الوالي : انزل يا باشا ! ثم يخرج من القاعة . وهنا يعلم الباشا الوالي أن المماليك البكوات حكموا بعزله ، وأنه لا أمل له في البقاء بعد ذلك ، فيحزم أمتعته ، ويتوجه إلى بولاق حيث يركب منها عائداً إلى استنبول ! !

ولم يحمل ضعف الولاة العثمانيين أي معنى غير قوة الحكم بيد المماليك ، وهي قوة لم يكن للشعب نصيب منها ولا مشاركة فيها ، فقد كان الأمر بيد جماعة من البكوات يتنازعون على السلطان ، ولو بذلوا في سبيله أغلى الأثمان . . .

ب ــ الحالة الاجتماعية

ولد الشيخ حسن العطار في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر كما سلف القول . ولقد استطاع مؤرخ مصري متيقظ هو الشيخ عبد الرحمن الجبرتي أن يصور لنا في كتابه كثيراً من الصور الاجتماعية في مصر في ذلك القرن الذي سبق مجيء الحملة الفرنسية ، وهو قرن كان امتداداً ونهاية لقرنين قبله من الحكم العثماني . وتستطيع في كل صفحة من تاريخ الجبرتي أن تستخرج صورة للمجتمع المصري في ذلك الزمن وخاصة في تلك العقود من السنين التي سبقت مولد الشيخ حسن العطار . وإذا كان العطار من أسرة اشتغل عائلها بالتجارة والعطارة في أسواق القاهرة ، ولم تكن تعرف الأرض الزراعية ولا الفلاحة ، فإن صاحبنا لا شك قد أدرك ــ بوعيه ومشاهدته ــ نظام ملكية الأرض التي كان قدر قليل منها في يد الفلاحين الذين كانوا مثقلين بالضرائب والأتاوات المفروضة يدفعونها

إلى « الملتزم » الذى كان يأخذ القرى التزاماً ، ويتصرف فيها تصرف المالك فى ملكه ، على أن يتكفل بدفع ضرائبها إلى الحكومة ويتولى هو بنفسه جباية المال من الفلاحين . وكان نظام الالتزام هذا يعرض بطريق المزايدة لمن يدفع له ثمناً أكبر من أصحاب النفوذ والقوة القادرين على الجباية . . . وبعد أن كان الالتزام لمدة معينة صار يعطى للملتزمين مدى الحياة على أن ينتقل إلى ورثتهم متى دفعوا الإتاوة للحكومة .

ولاشك أن حسن العطار قد شاهد وسمع عن مساوئ هذا النظام الذى كان يعطى الملتزم حق نزع الأرض من يد الفلاح — بحجة تقصيره فى دفع الضرائب — وإعطائها إلى فلاح آخر . مما جعل ملكية الفلاح التى يزرعها تحت رحمة هؤلاء هؤلاء الملتزمين . وكانت الضرائب بأنواعها ؛ سواء كانت مخصصة للحكومة أم لكاشف الإقليم أم حاكمه أم للملتزم نفسه ، تثقل كاهل الفلاح الذى وصفه الرحالة فولنى ووصف حالته فى عهد طفولة حسن العطار بقوله : (والفلاحون آلات مأجورة : لا يترك لهم للمعاش إلا ما يقيهم الموت ، وما يحصدونه من أرز وحنطة يذهب إلى موائد سادتهم ، على حين يحتفظون لأنفسهم بالذرة ويصنعون منها خبزاً بلا خمير ، لا طعم له إذا كان بارداً ، يخبزونه فى ماة وقودها من روث الأبقار والجواميس . فهذا الخبز مضافاً إلى الماء والبصل الأخضر هو طعامهم طول العام . ويحسبون سعداء إذا تخالل طعامهم هذا شىء من العسل والجبن واللبن الرائب . أما اللحم والدهن فلا يعرفونهما إلا فى الأعياد والمواسم الكبرى وفى بيوت أهل السعة منهم . . .)

ولعل الله أراد بأسرة حسن العطار خيراً حين قسم لهم الاشتغال بالتجارة . فقد كان التجار أقل تعرضاً للمظالم من الفلاحين وأصحاب الأرض الزراعية . كما كانت معيشتهم فى القاهرة والعواصم الكبرى تضمن لهم من وسائل الراحة والعيش الهنىء — نسبيًّا — ما لا تضمنه الفلاحة . على أن التجار لم يسلموا فى كثير من الأحيان من مصادرة أموالهم لأسباب يتخذها الحكام . وهؤلاء هم التجار الذين كان يبدو عليهم اليسار . . . أما تاجر كالشيخ محمد كتن ، والد

حسن العطار ، فقد كان يعيش فى ستر الله فى دكانه الصغير ، وبهذا سلم من ظلم المصادرين ، وعيون المحصلين . . .

على أنه بجانب هؤلاء المستورين من التجار كان يوجد قلة من التجار الأثرياء الذين اجتمع لهم من الغنى الوافر والجاه العريض ما لم يفت مؤرخنا الجبرتى أن يصفه . فقد وصف لنا بيت الحاج أحمد الشرايبى التاجر ، (وبيتهم المشهور بالأزبكية بيت المجد والفخر والعز . ومماليكهم وأولاد مماليكهم من أعيان مصر جربجية وأمراء ، ومنهم يوسف باك الشرايبى . وكانوا فى غاية من الغنى والرفاهية والنظام ومكارم الأخلاق ، والإحسان للخاص والعام . ويتردد إلى منزلهم العلماء والفضلاء) .

أما أرباب الصناعة فى المجتمع المصرى فكانوا — على مهارتهم فى بعض الصناعات — على حال من الضنك بما يفرضه الحكام عليهم دائماً من الإتاوات والغرامات التى كان يجمعها « شيخ الطائفة » ويوردها إلى الحكومة . ولقد أساء السلطان سليم بما فعله عند خروجه من مصر من نقل أمهر الصناع وأرباب الفنون إلى الآستانة ، فقد كسدت بذلك سوق الصناعة فى البلاد ، وبقى على الزمن فى خلال الثلاثة القرون من الحكم العثمانى بعض الصناعات الدقيقة كصناعة البسط والأكلمة ، والتطريز التى كان يعجب بها الأجانب ويتهافتون على شرائها وخاصة تطريز الحرير والجوخ والموسلين ، وتطريز الجلود بأسلاك الذهب والفضة ، وصناعة الكردون والشراريب من القطن والحرير وأسلاك الذهب والفضة التى اشتهر بها العقادون ، وصناعة الخراطة التى قام بها الخراطون فى عمل النوافذ والأبواب والشبابيك والمشربيات والمنابر والحواجز ، وصياغة المعادن وخرط الكهرمان والعاج .

أما الصناعات الآلية الدقيقة فلم يكن من أهل البلاد من يعرفها ، وقد لفتت هذه الظاهرة أنظار كل الرحالين الذين وفدوا إلى مصر فى ذلك العصر ، فكتب ڤولنى يقول (إن الفنون الآلية ما يزال أبسطها فى دور نشأته ، وأشغال النجارة والحدادة والأسلحة بعيدة عن الإحكام والإتقان ، وأنك لتجهد نفسك لتحصل

على من يصلح لك ساعتك فى القاهرة ، وإذا عثرت عليه فهو أجنبى . . .)

على أن ذلك لم يمنع من قيام صناعات أخرى تتصل بمواد التغذية ، والملبس ، وحركة العمارة والتشييد . كطحن الحبوب ، وضرب الأرز وتبييضه ، وطحن البن ، وعصر الزيوت ، واستقطار ماء الورد وما إليه ، واشتيار العسل ، وصنع الفطائر ، وغزل القطن والكتان والصوف ونسجها ، ونسج الحرير ، ونحت الأحجار ، وصنع البلاط ، وتنجيد الأثاث ، وعمل المسابح ، وسك النقود .

وكان بجانب هذه المهن مهن أخرى أقل منها قدراً وأكثر اتضاعا ، كالمكارين الذين وصف المويلحى بقاياهم فى « حديث عيسى بن هشام » ، وكالحمالين ، والنوتية فى النيل ، والسقائين الذين كانوا يحملون قرب الماء على ظهورهم ، وقد وصفهم المستشرق إدوار وليم لين وصفاً دقيقاً شائقاً خلال رحلته إلى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر .

ولعل هذا التخلف فى ميدان العلوم العملية التطبيقية وفى مجال الصناعات والفنون هو الذى دعا الشيخ حسن العطار — حين صار له رأى مسموع — إلى المناداة بضرورة الأخذ بالعلوم الطبيعية والأصول الهندسية ، بجانب الرسوخ فى العلوم الشرعية والأصول الفقهية ، فإن الدين لا يتعارض مع التفكر فى ملكوت السموات والأرض ومحاولة تسخير الطبيعة وقوى الكون للقوى العاقلة فى الإنسان .

ومن المخالفة للواقع أن نقول إن المجتمع المصرى فى ذلك العهد كان مجتمعاً سليماً صحيحاً معافى من الأمراض . ولا شك أن الجهل والتسليم الناقص بالقضاء والقدر كانا من أهم العوامل فى انتشار الأوبئة والعلل بصورة مزعجة . حتى كان مئات الألوف من النفوس تتعرض للموت فى حالات الوباء .

ومن العجيب أن مصر منذ الاحتلال العثمانى لها كانت مسرحاً ومباءة لمرض الطاعون الذى كان يفتك بالبلاد فتكاً ذريعاً . فبعد ست سنوات ومائة من ذلك الاحتلال أصيبت البلاد فى زمن الوالى جعفر باشا بطاعون شديد لبث أربعة أشهر ومات فيه ستمائة ألف نسمة . وبعد هذا الطاعون بسبع سنوات لا تزيد اجتاح الوباء ثلاثمائة ألف نسمة . ويروى المؤرخ ابن أبى السرور البكرى أنه

فى سنة ١٠٥٠ هـ — أى بعد الاحتلال التركى بمائة وثلاثين عاماً — وفى عهد الوالى مقصود باشا ، حصل طاعون لم يسمع بمثله ؛ وكان السبب فى خراب ٢٣٠ بلدة من الوجه البحرى . . . ولا تنسى البلاد ذلك الطاعون الذى حدث فى شياخة المملوك المصرى ذى الفقار بك سنة ١١٤٢هـ — ١٧٢٩ م قبل مولد العطار ببضعة وثلاثين عاماً . على أنه فى سنة ١٢٠٥هـ — سنة ١٧٩١ م ، وسن العطار تبلغ خمسة وعشرين عاماً — حدث بمصر الطاعون الذى مات فيه السيد محمد مرتضى الزبيدى صاحب « تاج العروس » فى شرح القاموس وأحد شيوخ حسن العطار وعبد الرحمن الجبرتى المؤرخ .

ولقد حدث فى عصر حسن العطار بعد ذلك وباءان عظيمان أولهما فى عهد الحملة الفرنسية سنة ١٨٠٠ م ، وثانيهما فى عهد محمد على سنة ١٨٢٣ ، وقد وصف الرجل الوباءين بما سنعرض له فى موضعه من هذا الكتاب بشىء من التفصيل الذى يقتضيه مشاركة صاحبنا فى وصف أحداث زمانه .

على أن ذلك المجتمع المريض الجاهل الفقير لم يسلم بالطبع من فعل الخرافات فيه وانقياده للأوهام والخزعبلات . وقد ولد حسن العطار — ذلك الشيخ الأزهرى المتنور — فى ظلمات تلك الخرافات ؛ فقبل مولده بسبع سنين لا تزيد حدثت حادثة العنزة التى رواها الجبرتى المؤرخ فى حوادث سنة ١١٧٣ هـ . وبطل هذه الحادثة هو الشيخ عبد اللطيف كبير خدام المشهد النفيسى . فقد جلب عنزا واخترع لها قصة ، وزعم أن السيدة نفيسة — دفينة المشهد — تكلمت وأوصت بالعنزة ! وأن الشيخ نفسه سمع كلامها من داخل القبر ! وزعم الشيخ الدجال أن هذه العنزة لا تأكل إلا قلب اللوز والفستق ، ولا تشرب إلا ماء الورد والسكر المكرر ! فكان الناس يحملون إليه ذلك بالقناطير ! وحملوا إليه النذور ! وعمل النساء للعنز قلائد الذهب والأطواق والحلى ونحوها . . . وافتتنوا بها ! وبلغ الخبر مسامع عبد الرحمن كتخدا المشهور كبير البكوات المماليك فى مصر وصاحب العمائر الشهيرة بالقاهرة ، وكان رجلاً عاقلاً واعياً ، فاحتال على العنز حتى ذبحها وصاحبها الدجال لا يعلم ، وقدمها له مشوية وهو يقول له :

كل يا شيخ عبد اللطيف من هذا الرميس الثمين ! والشيخ يأكل ويقول إن لحمها طيب ، ومستو ، ونفيس ! وهو لايدرى أنها عنزه! والقوم يتغامزون ويتضاحكون . فلما سأل الشيخ — فى خاتمة الضيافة — عن عنزته قيل له إنها هى التى كانت فى الصحن بين يديه ! ووبخه الأمير كتخدا على دجله وشعوذته ، وأمر بأن يوضع جلد العنزة على عمامته ، ويُسارَ به فى شوارع القاهرة على هذه الحال ، وبين يديه الطبول والأشاير ! !

وكان حادث العنزة واحداً من عشرات الحوادث التى تدل على عقلية المجتمع المصرى فى ذلك العهد ، فقبله بخمسة وعشرين عاماً أشيع فى الناس بمصر أن القيامة ستقوم بعد يومين اثنين . . . وراج هذا الكلام حتى فى القرى والأرياف ، وودع الناس بعضهم بعضاً ، وكان يقول المرء لصاحبه : بقى من عمرنا يومان . . . وانقسم الناس فريقين : فريقاً لجأ إلى اللهو والحظ والخروج إلى الغيطان والمتنزهات ليتزود من الدنيا بآخر متعة ! ، وفريقاً لجأ إلى الابتهال والصلاة يستغفر الله من ذنبه ! ومن عجب أن الفريقين صدقا الإشاعة ووقع صدقها فى نفوسهم ، واستدلوا على صدقها بقول أصحاب الجفور والزايرجات من اليهود والأقباط . فلما فات اليومان ولم تقم القيامة كما كانوا يتوقعون انتقلوا إلى القول بأن السيد أحمد البدوى ، والدسوقى ، والشافعى تشفعوا فى ذلك ، وقبل الله شفاعتهم ! !

ولعل المجتمع المصرى كان يتسلى من الظلم المحدق به والضيق الواقع عليه بأمثال هذه الخرافات والخزعبلات . . . على أن شيوخ ذلك العصر وأدباءه وشعراءه كانوا يهربون من الضيق المحيط بهم إلى جو آخر غير جو الأوهام والخرافات . . . فكانوا يتسلون على إساءات الزمان بالاجتماعات التى كانوا يقيمونها ويتبادلون فيها الأشعار والأسمار ، وبالدعوات إلى المتنزهات حيث يستمعون إلى حفيف الأشجار ، وغناء الأطيار . وسنلتقى فى فصل مقبل بالشاعر إسماعيل الخشاب ، والشيخين حسن العطار وعبد الرحمن الجبرتى المؤرخ ، حيث كانوا يتنادمون فى دار الجبرتى ، ويطرحون التكليف ، فى جو أدبى ظريف . . .

حـ ـ الحياة العقلية

كانت مصر فى القرن الثامن عشر لا تزال تابعة للدولة العثمانية ، وكان مظهر هذه التبعية هو وجود الوالى التركى فى مصر ، وإن كان بكوات المماليك هم الذين يتولون الحكم الحقيقى فى البلاد . ولم تكن مصر وحدها منفردة بهذه التبعية فقد شاركها فى ذلك الشام والعراق والحجاز واليمن وبعض بلاد الشمال الإفريقى. ولم تكن تركيا نفسها بأسعد حظاً من هذه البلاد التابعة ، من حيث الحركة الفكرية والحياة العقلية . فحينما أراد سعيد بن[1] محمد جلبي سفير الدولة العثمانية فى باريس إدخال المطبعة لأول مرة فى بلاده فى القرن الثامن عشر وجد من الحكومة من المعارضة مثل ما لقيه من الشعب . فقد كان رجال الدين يتحرجون أشد الحرج من ذلك الاختراع الجديد ، ثم سمحوا بطبع الكتب غير الدينية ، وأخيراً سمحوا بطبع الكتب الدينية بناء على فتوى أصدرها رجال الشرع استناداً إلى القضية المسلم بها ، وهى أن الأمور بمقاصدها . . .

والواقع أن القرن الثامن عشر الذى ولد فيه حسن العطار لم يكن إلا على غرار القرنين السابقين له ــ وهما السابع عشر والسادس عشر ــ من حيث التخلف العقلى ، والتأخر الفكرى الذى ظهر فى البلاد بصورة واضحة . فلقد ضاعت تلك البقية الباقية من الحركة الفكرية والعلمية والأدبية التى كانت سائدة فى عصر دولتى المماليك البحرية والشراكسة . وبلغ من سوء حال الأدب فى ذلك العصر أنه لم ينبغ فى البلاد شاعر واحد يستحق أن يشار إليه . واقتصرت الحركة العلمية على وجود طائفة من العلماء والشيوخ الذين اهتموا بتأليف الشروح والحواشى والتعاليق والتقارير ، بدلاً من الاهتمام بالابتكارات الأصلية فى

---

(١) ذكر الأستاذ عمر الدسوقى فى كتابه « فى الأدب الحديث » ج ١ أن محمد جلبي سفير الدولة العثمانية هو الذى أراد هذا ، والواقع انه ابنه سعيد الذى صار صدراً أعظم بعد ذلك . وانظر تاريخ الطباعة فى الشرق العربى .

العلوم . وإذا كان عصر دولتي المماليك قد سمى عصر كتب الموسوعات والمجاميع العلمية ، فإن العصر العثماني بجملته قد سمى عصر الشروح والحواشي .

ومن عجائب ما حدث فى القرون الثلاثة للاحتلال العثمانى أن اللغة التركية لم تستطع أن تنافس اللغة العربية أو تطردها فى أوطانها ، ولكنها استطاعت أن تفسد ملكة اللسان العربى عند أصحابه . . . فقد رأينا ملكة التعبير هبطت عند كثير من الأدباء والمؤلفين ، كما رأينا الأصالة الفكرية قد استحالت إلى ضحالة ، ورأينا القرائح العربية قد جمدت ولم يعد لها ذلك الخصب الذى عهدناه فى عهود القوة العربية ، وهبط مستوى التأليف الخالق المبتكر إلى درك من الجدل العقيم ، والتعليق السقيم ، والحواشي المرذولة التى لا ترتفع إلى مستوى الأصلاء فى التفكير ، والتى لا تعدو أن تكون مجموعة من الاعتراضات المفردة التى لا تدل على استجماع فكر ، ولا تأصل رأى ، ولا استنباط علم . . . ومن هنا لم يظهر فى القرن الثانى عشر الهجرى الذى ظهر فيه حسن العطار إلا قلة نادرة من أمثال السيد مرتضى الزبيدى شارح القاموس المحيط ، والشيخ محمد الصبان الذى اشتهر بحاشيته على شرح الأشمونى ، ولم يكن له من الأصالة فى علم النحو مثل ما كان لابن هشام النحوى المصرى من رجال القرن الثامن الهجرى ، وصاحب شذور الذهب ، ومغنى اللبيب ، وقطر الندى ، والذى شهد له المؤرخ ابن خلدون بقوله : « ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام ، أنحى من سيبويه . . . » . حتى الشيخ عبد الغنى النابلسى الرحالة اللغوى المنطقى المؤرخ المتصوف المشهور ، والذى كان يلقب بأستاذ الأساتذة ، لم يكن له من الأصالة فى التأليف والفقه والفتوى ما يرفعه إلى مقام المؤلفين المبتكرين . . .

وإذا كان عرضنا للمصنفات التى ظهرت فى عصر ظهور الشيخ حسن العطار يدلنا على المتجه الفكرى الذى وصلت إليه الحركة الثقافية فى ذلك الزمان ، فإن عرضنا لطائفة من شعر ذلك العصر يدلنا على المستوى الذى هبط إليه التعبير والخيال فيه . ولعل الكلام هنا يقوى بالاستشهاد أكثر مما يقوى بإرسال الأحكام .

فنى سنة ١١٨٢ هـ — سنة ١٧٦٨ م مات شيخ الإسلام أحمد الخالدى

الأزهري : فرثاه الشاعر الشيخ مصطفى الصاوى ، وكان يلقب بنادرة العصر ، بقصيدة يقول فيها :

يادهر مالك بالمكاره تجترى ... ولفقد أرباب المكارم تحترى
تغتال منا ماجداً مع ماجد ... طابت طبائعه بطيب العنصر
تُردى الكريم ابن الكريم وما ترى ... حقًّا لعهد الماهر المتبصر
إن أصبح المولى عزيز عشيرة ... أمسيته فى ذل ذل أحقر
يغدو كريم النفس وهو مقدم ... فيروح فى هون به متقهقر
وإذا حلت بالصفو حالة حاله ... مررتها ببغيض عيش أكدر
لو كنت ترعى فى الأفاضل حقهم ... أبقيت مجمع شملهم فى الأعصر

ومن عجب أن الجبرتى المؤرخ الذى يلقب الشاعر مصطفى الصاوى هذا بلقب نادرة العصر ، يصف هذه القصيدة بأنها فريدة . . .

ولا يزيد الشيخ عبد الله الإدكاوى — الشاعر المصرى فى أوائل عهد حسن العطار — شيئاً على زميله الشاعر مصطفى الصاوى . ولكنهما كانا نموذج الشاعر الرفيع فى عصرهما ؛ حتى ليغلى الجبرتى المؤرخ فى تقديرهما وخلع النعوت عليهما . ومن الشعر الذى رواه له صاحب « عجائب الآثار » قوله فى الرد على المنجمين :

الله يعلم ما مايكون ، وما به ... تسرى الرياح ، وماله يجرى الفَلَكْ
فدع المنجم فى ضلالته وما ... ينبيك عنه ففى مقالته أفَكْ
واحذر تصدقه فتهلك جاهلا ... يا مدعى الإيمان فيمن قد هلكْ
علم الأله محجب إلا على ... من يرتضيه من رسول أو ملك
هذا اعتقادى والذى ألقى به ... ربى لأسلك ناجيا مع من سلك

ولم يكن أى قطر عربى فى ذلك العهد بأسعد حالاً من مصر فى الشعر وغيره من فنون الأدب والعلم . فقد ظهر فى ذلك الزمان السيد جعفر السقاف

باعلوى ، وكان يلقب بأديب جزيرة الحجاز ؛ ومع هذا لم يكن يمتح فى شعره إلا من البئر التى يمتح منها بقية الشعراء فى عصره . . .

ولقد ساعدت عجمة الدولة المتبوعة ، وجهلُ الحاكم ، واستهتارُ الوالى العثمانى وضعفه ، وصراع البيكوات المماليك وانشغالهم بأمور أنفسهم عن إصلاح أمور الشعب ، وتعطيلُ المدارس ، وتبديدُ خزائن الكتب — ساعد كل ذلك على تأخر الحالة العلمية والأدبية فى البلاد ، حتى صارت إلى حد كان لا بد بعده من بزوغ نهضة جديدة تعوض ما فات ، وتجدد ما اندرس ، فكانت تلك النهضة التى ظهرت فى القرن التاسع عشر ، والتى كان رائدها الشيخ رفاعة الطهطاوى تلميذ الشيخ حسن العطار .

ولا شك أن تعطيل المدارس التى كانت مزدهرة فى أيام الفاطميين والأيوبيين ودولتى المماليك كان عاملاً من عوامل التخلف فى البلاد ، وإلى هذه الحقيقة يشير على مبارك فى الجزء الأول من « الخطط التوفيقية » بقوله : (من ابتداء القرن التاسع إلى القرن الثانى عشر يعنى مدة ثلاثة قرون، قد أهمل أمر المدارس ؛ وامتدت أيدى الأطماع إلى أوقافها ، وتصرف فيها النظار على خلاف شروط وقفها ، وامتنع الصرف على المدرسين والطلبة والخدمة فأخذوا فى مفارقتها . وصار ذلك يزيد فى كل سنة عما قبلها لكثرة الاضطرابات الحاصلة بالبلاد ، حتى انقطع التدريس فيها بالكلية . وبيعت كتبها وانتهبت ؛ ثم أخذت تتشعث وتتخرب من عدم الالتفات إلى عمارتها ومرمتها ؛ فامتدت أيدى الناس والظلمة إلى بيع رخامها وأبوابها وشبابيكها . حتى آل بعض تلك المدارس الفخمة والمبانى الجليلة إلى زاوية صغيرة تراها مغلقة فى أغلب الأيام ؛ وبعضها زال بالكلية وصار زريبة أو حوشاً أو غير ذلك، ولله عاقبة الأمور . . .)

والواقع أنه لولا وجود الأزهر — على الرغم مما كان فيه من تخلف وجمود فى مواد الدراسة — لقضى على الحياة الفكرية بمصر قضاء مبرما . فقد كان الشيوخ الذين يتخرجون فيه مبعث ذلك البصيص من النور فى البلاد ، وكانت الكتب الأزهرية — على الرغم من عقم مناهجها وعدم جدواها — مثاراً لانشغالات ذهنية ؛

وإن كانت العلوم العقلية والرياضية والطبيعية قد هجرت فى الأزهر تماماً ، حتى لقد تعجب الوزير أحمد باشا كور الوالى التركى على مصر سنة ١١٦١ﻫ – أى قبل مولد العطار بعشرين عاماً – من عدم وجود العلوم الرياضية فى الأزهر مع شدة رغبته فى طلبها ، فلما استقر مقامه بالقلعة وقابل صدور العلماء، ومنهم الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الأزهر تكلم معهم فى الرياضيات ، فأجابوه بأنهم لا يعرفون هذه العلوم ، فتعجب وسكت ، ثم انتهز فرصة اختلائه بالشيخ فقال له : المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم ، وكنت فى غاية الشوق إلى المجىء إليها ، فلما جئتها وجدتها كما قيل : تسمع بالمعيدى خير من أن تراه . . . ولما علم أن بين أهل الأزهر قلة ممن يعرفون العلوم الرياضية – كالشيخ حسن الجبرتى والد مؤرخنا – فرح بالتردد عليه وقراءة كتب الرياضة معه .

وكان الشيخ حسن العطار من هذه القلة الأزهرية التى أدركت ضرورة العلوم العقلية والطبيعية لنهوض البلاد ، فإنه على الرغم من مشاركته الكثيرة فى كتب الحواشى المتعددة التى سيجىء بيانها فى موضع آخر من الكتاب ، كان صاحب فضل فى التنبيه إلى قيمة العلوم الطبيعية ، وإلى ضرورة إدخال العلوم العصرية، وله فى ذلك العبارة المأثورة التى يقول فيها : (إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها) . ولاشك أن اتصال حسن العطار ببعض علماء الحملة الفرنسية قد أفاد عقليته المتحررة ، كما أن اطلاعه على كتبهم وآلاتهم التى حملوها إلى مصر معهم قد أكد له قيمة العلم والتجربة ، ويقرر لنا على مبارك فى الجزء الرابع من خططه أن الشيخ حسن العطار كان يتعجب مما وصلت إليه الأمة الفرنسية من المعارف والعلوم ، ومن كثرة كتبهم وتحريرها ، وتقريبها لطرق الاستفادة .